الخطاطة الوصفية الجديدة للواقع السوسيولساني في الجزائر
من خلال كتاب"الجزائريون والمسألة اللغوية"

The new descriptive schema of the sociolinguistic realityin Algeria through the book“The Algerians and their languages

كايسة عليك جامعة عبد الرحمن ميرة– بجايةelkaissa.alik@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 تاريخ القبول: 2022/05/01 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص: يستهدف هذا البحث عرض إحدى القضايا الأساسية التي تناولتها الباحثة خولة طالب الإبراهيمي بالدراسة في كتابها "الجزائريون والمسألة اللغوية" والمتمثلة في إعادة وصف وتحليل الوضع السوسيولساني في الجزائر باعتماد مقاربة ديناميكية للعلاقات بين مختلف التنوعات اللغوية السائدة في المجتمع الجزائري،وقد توصّل البحث إلى أنّ خطاطة فرقيسون الكلاسيكية القائمة على مفهومي الثنائية والازدواجية اللغويتين لا تفي بغرض وصف الوضع اللغوي في الجزائر وصفا إجرائيا سليما، حيث لا وجود لحواجز متينة بين اللغات المتعايشة في المجتمع،بسبب وجود تداخل بين الفصحى والعاميات في المواقف الرسمية والعادية، كما أنّ الثنائية اللغوية (بين العربية والفرنسية)و(العربية والأمازيغية) و(الفرنسية والأمازيغية) غير ثابتة هي كذلك، وأنّ التوزيع الوظيفي بينها غير متساو، ممّا تسبب في انعدام التجانس السوسيولساني في المجتمع.

كلمات مفتاحية: الواقع السوسيولساني؛ الخطاطة الكلاسيكية؛ التنوّعات اللغوية؛ الازدواجية؛ التعدد اللغوي؛السياسة اللغوية.

Abstract:
This research aims to present one of the main issues addressed by researcher Khawla Taleb Al-Ibrahimi in her book "The Algerians and their languages ", which is to re-describe and analyze the sociological situation in Algeria by adopting a dynamic approach to the relations between the various linguistic variations prevailing in Algerian society. The research concluded that the classic Ferguson schematic based on the two concepts of and diglossia bilingualismdoes not meet the purpose of properly describing the linguistic situation in Algeria in a procedural way, as there are no solid barriers between the coexisting languages in society, due to the presence of overlap between classical and colloquial in formal and ordinary situations, as well as that the bilingualism (between Arabic and French), (Arabic and Tamazight) and (French and Berber) not fixed as well, and that the functional distribution is between them is uneven, which has caused a lack of sociological homogeneity in society.

Keywords: Sociolinguistics; classical calligraphy;linguistic variation;bilingualism; multilingualism; language policy.

المؤلف المرسل:كايسة عليك:elkaissa.alik@univ-bejaia.dz

1. مقدمة:

لقد شكّلت اللسانيات الاجتماعية منعطفا حاسما في الدراسات اللغوية الغربية، وأسهمت بفعالية في إبراز ذلك التأثير والتأثّر الحاصل بين البنية اللغوية وبقية عناصر البناء الاجتماعي، وقد جعلت الباحثة خولة طالب الإبراهيمي من هذا العلم أداةً أساسية للفهم السوسيولساني للأوضاع اللغوية في الجزائر، فحاولت من خلال كتابها الموسوم (الجزائريون والمسألة اللغوية) الكشف عن حركية وتحوّل المجتمع الجزائري في جميع المستويات، ومناقشة جملة من القضايا ذات الصلة بالتعدّد اللغوي والممارسات اللغوية، والسياسة اللغوية، والتعريب، وتعليم اللغة العربية في المدرسة الجزائرية، حيث يلتمس القارئ لهذا الكتاب قدرة الباحثة على التفكير بشكل مختلف، وهذا الجهد المتميّز قبل أن يأخذ هيئة كتاب، كانت نقطةُ بدايتِه أطروحةً أعدّتها الباحثة لنيل شهادة الدكتوراه، إلاّ أنّ خولة طالب الإبراهيمي لم تكتفِ بجمع أفكار الآخرين والتعليق عليها، بل انفردت برؤى فردية وأفكار شخصية أصيلة، حيث تضمّن بحثها حقائق حول قضية علمية ليست بجديدة، بل الجديد يتجلى في المنهجية العلمية الصارمة التي انتهجتها في بحثها، وفي النتائج التي أسفرت عنها مدونتها.

وبناءً على ما سبق، سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية إبراز **الفكر الإبداعي** لدى الباحثة في وصف وتحليل الواقع السوسيولساني في الجزائر، **والكشف عن طريقتها** في معالجة المسألة اللغوية، وبالتالي، سنحاول الإجابة عن السؤالين الأساسيين التاليين:

– ما الخطاطة الوصفية الجديدة التي اعتمدتها الباحثة خولة طالب الإبراهيمي في وصف وتحليل الواقع السوسيولساني في المجتمع الجزائري من خلال كتابها "الجزائريون والمسألة اللغوية؟

– وما هي عناصر التفرّد في دراستها وتحليلها لهذا الواقع؟

ويقوم البحث عل فرضية أساسية مفادها أنّ المجتمع الجزائري مجتمع متنوّع ومتعدّد اللغات، وأنّ الثنائيات اللغوية السائدة لا تتوفّر فيها صفتا الثبات والتوزيع الوظيفي اللتان تنصّ عليهما خطاطة فرقسون التي تبناها الباحثون الجزائريون في وصفهم للواقع اللغوي في الجزائر(قبل صدور كتاب خولة طالب الإبراهيمي: الجزائريون والمسألة اللغوية)، وبالتالي فإنّ تلك الخطاطة لا تصلح لوصف الواقع اللغوي الجزائري الذي تتعايش فيه تنوّعات لغوية لم تتوزّع وظائفها بالتساوي، وتفتقر إلى صفة الثبات.

ويستهدف هذا البحث تسليط الضوء على جهود وإسهامات الباحثة الجزائرية "خولة طالب الإبراهيمي"* في تحليلها للواقع السوسيولساني في الجزائر، وإبراز مظاهر تعقيد هذا الواقع، وعرض الخطاطة الديناميكية التي اعتمدتها الباحثة في إعادة وصف العلاقة بين اللغات السائدة في المجتمع الجزائري، وذلك بعد نقدها للخطاطة الكلاسيكية التي وضعها اللساني الاجتماعي الأمريكي شارك فيرقسون، والتي طالما تبناها الباحثون العرب بصفة عامة والجزائريون على وجه الخصوص، رغم أنّ تلك الخطاطة لا تنسجم مع الواقع اللغوي في الجزائر والمغرب العربي بصفة عامة.

1– نظرة عامة حول الموضوع:

لقد قدّمت خولة طالب الإبراهيمي في كتابها "الجزائريون والمسألة اللغوية" دراسة دقيقة وعميقة حول الواقع اللغوي في الجزائر بكل مكوناته، وقد وضّحت إجراءات الدراسة في مقدمة كتابها "الجزائريون والمسألة اللغوية" (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص9 إلى ص11) فحاولت أن تعيد وصف وتحليل هذا الواقع وفق معطيات ورؤى جديدة وأفكار شخصية أصيلة، واستفادت في ذلك من التطورات الحاصلة في الدراسات اللسانية الاجتماعية في السبعينيات، واستمدّت من هذا العلم أدواتها المنهجية والإجرائية، خاصة بعد ظهور الدراسات التي انتقدت الخطاطة المعيارية التي وضعها فرقيسون في تحديده للازدواجية اللغوية وخصوصياتها وشروطها، أبرزها: أبحاث فيشمان، وشيفمان، وألن كي، وقومبرز، وقد وضّح فاسولد رالف توسيع في شمان لمفهوم الازدواجية بعد نقده للمفهوم الذي وضعه فرقسون (فاسولد رالف، 2000، ص72، 73)، كما يلتمس القارئ لكتاب خولة طالب الإبراهيمي قدرة هذه الأخيرة على التفكير بشكل مختلف، وأسفر تحليلها لمدونة البحث عن نتائج أثارت جدلا واسعا في أوساط مختلفة، خاصة في الفترة التي أُصدر فيها الكتاب.

لقد أشارت الباحثة في مقدمة كتابها"الجزائريون والمسألة اللغوية" إلى أنّها قد تخلّت «...عن الأوصاف المعتادة للواقع اللغوي الجزائري القائمة على مفهومي الازدواجية والثنائية اللغويتين، ذلك الوصف الثابت الذي يحدّد لكل لغة منزلة، دون مراعاة الممارسات اللغوية الفعلية وتصوّرات الناطقين ومواقفهم» (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص10)، وسعت إلى تجاوز الوصف التقليدي للواقع اللساني في الجزائر

ذلك الوصف القائم على المفهوم الكلاسيكي للازدواجية والثنائية اللغويتين، وحاولت الإبانة عن عدم إجرائية هذه الخطاطة الكلاسيكية بالتشديد على ضرورة تحليل الواقع اللساني،باعتماد وجهة نظر ديناميكية لإظهار الطابع التطوري للعلاقات القائمة بين اللغات المستعملة (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص10، 11)، مستفيدة في ذلك من الدراسات اللسانية الاجتماعية،فوضعت على غرارها خطاطة جديدة لتسليط الضوء على اللغات المتعايشة في الجزائر، وسيتمّ توضيح ذلك في العناصر الآتية:

2- بعض المصطلحات الأساسية التي يقوم عليها البحث:

قبل الشروع في معالجة التساؤلات المطروحة في المقدمة، ارتأينا تحديد بعض المصطلحات الأساسية التي يقوم عليها البحث تحديدا مختصرا، وهي كالتالي:

* **الازدواجية اللغوية** (la diglossie): يشير هذا المصطلح إلى أبرز الظواهر السوسيولسانية المنتشرة في كثير من المجتمعات، وتتمثل في «وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة»(القعود عبد الرحمن بن مُحَمَّد، 1997، ص11)، فالازدواجية بهذا المفهوم تعني تعايش لغتين في مجتمع واحد؛ لغة الكتابة والمواقف الرسمية ولغة التواصل اليومي،كوضع اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية في المجتمع الجزائري، فهما تشكلان ازدواجية لغوية.وأوّل من تطرّق لظاهرة الازدواجية اللغوية في اللغة العربية هو العالم اللغوي الألماني ك. كرمباخر (Krumbacher) سنة 1902، كما تحدّث عن هذه الظاهرة في اللغة ذاتها العالم الفرنسي وليام مارساي (W. Marçais) في الثلاثينيات من القرن العشرين، (صالح محمود خوالدة أكرم، 2012، ص131) لكن هذا المصطلح أصبح معروفا في اللسانيات الاجتماعية مع الدراسة التي نشرها اللغوي الأمريكي شارلز فرقسون (CH. Ferguson) سنة (1959) بعنوان (Diglossia)، ومن اللغات التي ركز عليها في دراسته، اللغة العربية.

الديجلوسيا بمفهوم فرقسون هي «موقف لغوي**ثابت** نسبيا، توجد فيه بالإضافةإلى اللهجات الأساسية للغة بعينها (والتي قد تتضمن لهجة متواضعا عليها، أو لهجات إقليمية متواضعا عليها)نوعية أخرى مختلفة صارمة من ناحية التقنين (وهي غالبا ما تكون **أكثر تعقيدا من ناحية قواعدها النحوية**)، هذه النوعية غالبا ما تكون مفروضة من جهة عليا، وهي أيضا **لغة الكتابة الأساسية في الأدب ولغة التراث** وربما لغة

لجماعة كلامية في الماضي، وهذي «النوعية» **يدرسها ويتعلمها الناس**من خلال النظام التعليمي الرسمي للبلاد. وهيتُستخدم في جميع **المواقف والأغراض الرسمية** المنطوق منها والمكتوب، ولكنها **ليست مستخدمة** في أيّ قطاع من قطاعات المجتمع لتجاذب أطراف **الحديث اليومي والعادي**» (هدسون، 1990، ص89، 90)، حدّدفرقسون في هذا التعريف شروطا للازدواجية وفق ما توصّل إليه من خلال المجتمعات التي درسها، لكن ما لفت اهتمام الباحثة خولة طالب الإبراهيمي من هذه الشروط، هو قناعة فرق سونب الثبات النسبي للازدواجية وبالتوزيع الوظيفي التكاملي للغتين اللتين تشكلانها، ممّا يعني أنّ لكل تنوّع أدوارا سوسيولسانية محدّدة، وأنّه لا يمكن للتنوّع الرفيع أن يحلّ محلّ التنوّع الوضيع أو العكس، يقول فرقسون: «إنّ المتكلم الذي يستعمل المنوّعة السفلى في المقامات الشكلية سيكون عرضة للسّخرية، كما أنّ المتكلّم الذي يستعمل المنوّعة العليا في المحادثات العادية أو الأنشطة غير الرسمية مثل التسوّق، سيكون عرضة للسخرية أيضا»(العشيري مُحَمَّد نافع، 2016، ص88) ، فاللغتان (الرفيعة والوضيعة) في توزيع تكاملي، وذلك بناءً على ما استخلصه فرقسون من المجتمعات مزدوجة اللغة التي درسها.

لقد أُنتقدت "الازدواجية"" بمفهوم فرقيسون من قبل لسانيين اجتماعيين كثيرين، وأُعتبروها كلاسيكية ومعيارية، وذلك بعد تحليل وضعيات سوسيولغوية لا تنطبق عليها شروط الازدواجية كما حدّدها هذا العالم، وقد «اقترح فيشمان(1967) الازدواجية الموسعة، التي تجاوزت بعض الثغرات الواردة في تعريف فرقسون، حيث وسّع المفهوم ليشمل كلّ الأشكال اللغوية التي تتكامل فيها الأدوار السوسيولسانية بغض النظر عن أصولها السلالية»(العشيري مُحَمَّد نافع، 2016، ص96)، كما أُنتُقد مفهوم الثبات والاستقرار، حيث أثبت تحليل بعض الوضعيات السوسيولسانية كذلك، عدم انطباق هذا المفهوم على جميع وضعيات الازدواجية اللغوية، إذ في كثير من الأحيان تؤدي بعض الظروف إلى إحلال اللغة الوضيعة مكان اللغة الرفيعة(هدسون، 1990، ص91)، وستثبت الباحثة خولة طالب الإبراهيمي أنّ الوضع اللغوي في الجزائر لا يستجيب لنموذج فرقسون، على الأقل ما يرتبط بمعياري الثبات والتوزيع الوظيفي التكاملي.

* **الثنائية اللغوية (Bilinguisme)**: يُعرِّف أحد الباحثين الثنائية بأنّها «قدرة الفرد أو المجتمع على التّحدث بلغتين مختلفتين، لكلّ منهما نسقه الصوتي والصرفي والتركيبي... (أي أنّهما ينتميان إلى أصول سلالية مختلفة» (العشيري مُحَّد نافع، 2016، ص72)، يُلاحظ تجاوز هذا التعريف التعريفات التقليدية التي تحصر الثنائية اللغوية في امتلاك لغتين مختلف تينو إتقانهما اتقانا كاملا، ويعرفها أ. مارتيني بأنّها «الاستعمال المتناوب للغتين من قبل الفرد أو الجماعة الواحدة»(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص44)، هذا التعريف أيضا يعيد النظر في التعريفات التقليدية للثنائية، إذ لم يشرمارتيني في تعريفه إلى الإتقان الكامل للغتين، لأنّ ذلك الأمر صعب المنال، بل ركز على الاستعمال المتناوب لهما من قبل الفرد أو الجماعة، ويمكن التمثيل لذلك بالمجتمع الجزائري الذي يتناوب معظم الناطقين فيه على استعمال لغتين مختلفتين؛ إمّا(اللغة العربية واللغة الفرنسية) أو (اللغة العربية واللغة الأمازيغية) أو(اللغة الأمازيغية واللغة الفرنسية)، وقد يتناوب البعض منهم على استعمال أكثر من لغتين، ومن هنا يمكن القول بأنّ الثنائية اللغوية تعني تعايش لغتين في مجتمع واحد، وهما مختلفتان ولا تنحدران من أصل واحد ولا يُشترط في ذلك الإتقان التام للغتين.

إنّ المجتمع الجزائري لا يمكن اعتباره مجتمعا ثنائي اللغة،لأنه تسوده أكثر من لغتين وأنّ أغلبية الناطقين تتناوب على استعمال على الأقل لغتين مختلفتين، (عربية، فرنسية)،(عربية، أمازيغية)، (أمازيغية فرنسية)،ويُقصد باللغة العربية هنا العاميات الجزائرية المختلفة واللغة العربية الفصحى، أضف إلى ذلك استعمال بعض الناطقين لغات أخرى؛ كالإنجليزية والإسبانية والتركية...الخفي مواقف معيّنة.وبناء على هذا الوضع، ستعيد الباحثة (خولة طالب الإبراهيمي) وصف الواقع اللغوي في الجزائر، لتكون أول باحث يصف هذا الواقع بالمتعدد والمتشعّب والمعقدفي كتابهاالموسوم (**Les algériens et leur(s) langue(s)**) الصادر سنة 1994، والذي ترجمه (مُحَّد يحياتن) إلى اللغة العربية سنة 2007 تحت تسمية (الجزائريون والمسألة اللغوية).

***التعدد اللغوي (Multilinguisme)**: هو استخدام عدة لغات أو عدة تنوّعات من قبل أفراد أو جماعة لغوية معيّنة، أو بالأحرى هي «تعايش لغات وطنية متباينة في بلد واحد»(الأوراغي مُحَّد،

2002، ص11)، فالمجتمع المتعدد اللغات هو مجتمع تتعايش فيه عدة لغات أو عدة تنوّعات لغوية، ونجد عددا معتبرا من أفراد هذا المجتمع يتفاهمون فيما بينهم بلغتين أو أكثر، كتعايش العربية (الفصحى واللهجات) والفرنسية والأمازيغية في الجزائر.

* **التداخل اللغوي (l'interférence)**: يدلّ هذا المصطلح، حسب جون لويس كالفي، (J. L. Calvet) «على تحوير(remaniement) للبنى ناتج عن إدخال عناصر أجنبية في مجالات اللغة الأكثر بناءً، مثل مجموع النظام الفونولوجي وجزء كبير من الصّرف والتراكيب وبعض مجالات المفردات (القرابة، اللّون، الزمن الخ»(كالفي جون لويس، 2006، ص27)، قد يحدث، بسبب تعدّد اللغات وتأثير وتأثّر بين اللغة الأم واللغات التي تحتكّ بها، ويؤدي ذلك إلى استبدال عنصر من عناصر إحدى هذه اللغات بعنصر آخر من اللغة التي تحتكّ بها (يكون هذا العنصر عنصرا صوتيا أو معجميا أو صرفيا أو تركيبيا)، ولا يُعتبر التداخل خاصية من خصائص اللغة، بل يحدث على مستوى الخطاب فقط، ويحدث التداخل في الغالب بين التنوّعات اللغوية؛ كالتداخل بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية.

* **التعاقب (أو الانتقال) والمزج اللغويين**: يرى جون لويس كالفي أنّه «عندما يكون الفرد إزاء لغتين يستعملهما بالتناوب، فيحصل أن تتمازجا في خطابه، وأن ينتج ملفوظات "مزدوجة". ولا يتعلق الأمر هنا بالتداخل، بل يمكننا القول بأنّ الأمر يتعلّق بعملية تلصيق (collage) وانتقال من نقطة من الخطاب بلغة إلى أخرى، وهو ما يدعى بـ "مزج اللغات" (code mixing) أو التعاقب اللغوي (code swiching) وهذا حسب حصول التغيّر اللغوي في مجرى الجملة نفسها أو من جملة إلى أخرى»،(كالفي جون لويس، 2006، ص32)، فقد يؤدي سياق الكلام بالمتحدّث إلى الانتقال من مستوى لغوي إلى آخر، لأسباب مختلفة، كالشرح مثلا، فهي حالة يلجأ إليها متكلم لغة مستخدما موارد لفظية ونحوية من لغات أو تنوعات أخرى في الخطاب ذاته، فمن سمات مزدوجي اللغة وثنائي اللغة وكذا متعددي اللغة أنّهم يلجأون إلى استخدام لغتين أو أكثر في حواراتهم وخطاباتهم، وتتجلى ظاهرتا التعاقب والمزج اللغويين بوضوح في الممارسات اللغوية اليومية في المجتمع الجزائري، وذلك بسبب تعايش عدة لغات واحتكاك عدة تنوّعات لغوية في المجتمع.

3 –وصف اللغات المتعايشة في المجتمع الجزائري:

وصفت (خولة طالب الإبراهيمي) الواقع اللغوي في الجزائر بأنّه واقع معقّد بسبب وجود عدة لغات أو بالأحرى عدة تنوّعات لغوية، وقد حدّدت اللّغات المتعايشة في الجزائر في ما يلي:

أ – اللغة العربية: ميّزت الباحثة بين اللغة العربية الفصحى التي لم تعرف منذ القرن الرابع هجري تقريبا استعمالا عفويا، بل هي لغة التعليم، وتستخدم فقط في المواقف الرسمية وتستعملها الفئة المثقفة، **واللهجات العربية** المتنوّعة التي يستخدمها الجزائريون بشكل عفوي، وهي معتمدة في مناطق كثيرة شرقا وغربا، وتُعتبر لغات التداول اليومي في معظم المناطق في الجزائر.

تدرج الباحثة تحت هذا العنصر عدة تنوّعات تعتقد أنّها مستخدمة في المجتمع الجزائري (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، من ص14 إلى ص24) وهي: اللغة العربية الكلاسيكية، واللغة العربية الحديثة أو المعاصرة، واللغة العربية الوسطى، أضف إلى ذلك التنوّع المهم والأكثر حيوية وهو المستخدم في التداول اليومي والمحادثات العادية من قبل نسبة كبيرة من الناطقين الجزائريين، وهي العاميات العربية الجزائرية.

ب – اللهجات الأمازيغية: هي امتداد للتنوّعات اللغوية القديمة التي عرفها المغرب الكبير، وهي تمثّل أقدم اللّغات الأصلية، وتشكّل في الجزائر اللغة الأمّ لجزء من السّكان، وأهم هذه اللهجات نجدها في: الأوراس (الشاوية)، جرجرة (القبائلية)، الهقار (الترقية)، واد ميزاب (الميزابية) (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص25، 26).

ج – اللغات الأجنبية: للغات الأجنبية كالإسبانية والتركية والإيطالية تأثير على التنوّعات اللغوية المختلفة في الجزائر، لكن اللغة الفرنسية هي اللغة الأجنبية الأكثر بقاء وتأثيرا في الاستعمالات الشفوية للهجات العربية والأمازيغية، ولم يقتصر استعمالها على الناحية الشفوية، بل لها مكانة ووجود قويّ في الإعلام، ومعظم المؤسسات الاقتصادية وفي الإدارة، والتعليم العالي. (TalebELIbrahimi Khaoula, 1997, p22).

لقد صوّرت الباحثة كلّ اللغات المتعايشة في المجتمع الجزائري، وذكرت دائرة استعمال كلّ لغة من اللغات السابقة بتفصيل، فخصّصت حيّزا معتبرا للحديث عن العربية الكلاسيكية (وتسميات أخرى لها؛

عربية فصحى، عربية أدبية، والعربية القديمة) كما تحدّثت بالتفصيل عن التنوّعات اللهجية، وكّزت على التنوّعات التي يستخدمها الجزائريون وعن الدائرة التي تنتمي إليها (الدائرة المغاربية)، (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، من ص15إلى ص21) واستعرضت التوزيع الجغرافي للهجات وخصوصياتها ووظائفها وتحولاتها ومجالات استخدامها، كما تحدثت عمّا سمته بالعربية الحديثة (أو المعاصرة) المستخدمة في وسائل الإعلام والنقاش السياسي والأدب المعاصر، والعربية الوسطى التي تعتبرها الباحثة حدا وسطا بين طرفين متباعدين (وهما الأدب والحياة اليومية)، وانتهت بوصف المجتمع الجزائري بـ "**المتنوّع" و"المتعدّد" و"المعقّد"**، تتعايش فيه عدة لغات، وهي العربية بكلّ تنوّعاتها (الفصحى واللهجات المختلفة الاجتماعية والجغرافية)، والأمازيغية بكل تنوعاتها اللهجية، والفرنسية والإنجليزية ...الخ.

لقد صرّحت الباحثة لإحدى الجرائد الوطنية بأنّ الفضاء اللغوي بالجزائر **متعدد**، توجد فيه اللغة الأمازيغية التي هي اللغة الأصلية، وهناك اللغة العربية التي جاءت عن طريق الفتوحات الإسلامية، وتوجد اللغة الفرنسية التي لها ظروفها التاريخية الخاصة، ومن هنا يتضح مدى ارتباط اللغة بالتاريخ وبالذاكرة والهوية، مضيفة أنه "علينا أن نعرف كيف نتعامل مع هذا الواقع المتعدد والاعتراف به"(جريدة جزايرس (المساء) يوم 27/ 05/ 2009)، فالمجتمع الجزائري، إذن تتعايش فيه عدة لغات وعدة لهجات متداخلة فيما بينها، ويفرز ذلك وضعا لغويا معقّدا تعجز خطاطة فرقيسون احتواءها، وضْعٌ لا تتحرج الباحثة خولة طالب الإبراهيمي في وصفه بالتعدّد والتشعّب، وما علينا إلاّ الاعتراف بذلك، وأن نعرف كيف نتعامل معه، وهي حقيقة واقعية، لكن لم يتجرّأ أي باحث التصريح بها من قبل.

وحين سُئِلت الباحثة في حوار أُجرته إحدى المجلات الوطنيةمعها بخصوصمدى إيمانها بفكرة "**التعدّد اللغوي**" في الجزائر، فكان جوابها أنّها تعاملت «علميا مع واقع لغوي في الجزائر موجود ولا يمكن تجاهله وحقيقة لا بد من الاعتراف بها، وهي أن المجتمع الجزائري متعدد لغويا ونتاج ظروف تاريخية موضوعية، حيث نجد الفضاء الأمازيغي بكل تفرعاته ولما حاولنا تجاهله حدث ما حدث في منطقة القبائل، وكادت البلد تدفع الثمن، ونجد أيضا فضاء العربية التي دخلت مع الفتوحات الإسلامية فتعرب على أثرها كل المغرب العربي، ووصلت حتى الأندلس ثم نجد الفرنسية كواقع في حياتنا اليومية. هل نظل

ننتظر أن الغير يدرسنا ويقدم لنا الحلول الجاهزة أو أنّ الشارع بصخبه يفرض علينا أيضا حلوله أم نضطلع بواقعنا وشؤوننا لنستوجد الحلول المناسبة وفق منظورنا؟» (لقاء مع خولة طالب الإبراهيمي، مجلة اللسانيات، ع87، 2020، ص15، 16).

وبناء على ما سبق، تقرّ الباحثة بافتقار الدراسات السابقة للوضع السوسيولساني في الجزائر إلى خطاطات إجرائية قادرة على الإحاطة بهذا الواقع المعقّد والمتقلّب الذي يعيش عدة صراعات، وتتداخل فيه عدة مجتمعات متعايشة لها تصوراتها ومجالات استعمال بعينها، أضف إلى ذلك تلك الممارسات الفعلية للناطقين، والتي تتجسد فيها ظواهر التعاقب/ التناوب اللغوي((=أي الانتقال من لغة إلى أخرى أثناء الكلام) أو(l'alternancecodique) والاقتراض(l'emprunt) و ظواهر الاحتكاك اللغوي بوجه عام(طاب الإبراهيمي خولة، 2007، ص13)، واستعرضت الباحثة في كتابها نتائج الاحتكاك بين كلّ اللغات السائدة في المجتمع، وما أفرزه التعدد والتنوّع والتشعب اللغوي في المجتمع الجزائري من ظواهر لغوية طبيعية؛ كالتداخل بين أنظمة هذه اللغات، والتعاقب اللغوي الذي يظهر جليّا في انتقال المتكلم الجزائريفي الخطاب الواحد من لغة إلى أخرى، أو من لغة إلى لهجة، أو من لهجة إلى أخرى، أضف إلى ذلك ظاهرتي المزج والاقتراض اللغويين اللتين تستحوذان على الخطابات اليومية وحتى الرسمية في كثير من الأحيان،وقد وضّحت ذلك بأمثلة حية من الواقع.

4- نقد الخطاطة الوصفية الكلاسكيةواقتراح مقاربة ديناميكية للعلاقات بين اللغات:

المقصود بالخطاطة الكلاسيكية هي خطاطة وضعها اللساني الاجتماعي الأمريكي شارل فرقسون الذي عُرف بأعماله حول الازدواجية اللغوية (الديجلوسيا)، من خلالِ اهتمامه بالمجتمعات المحلية للكلاموووصفِ الوضعيات اللّغوية المعقّدة لتلك المجتمعات، مرَكِّزا على الظاهرة المسماة بالازدواجية اللغوية (Diglossie)، أي تعايش لغتين في المجتمع نفسه لضمان حاجات التّواصل بين أفراد الجماعة، وقد شرح الكثير من الباحثين هذه الخطاطة، وتعرّض لها (رالف فاسولد Ralph W. Fasold) بالتفصيل في كتابه الموسوم "علم اللغة الاجتماعي للمجتمع (فاسولد رالف، 2000، من ص57 إلى 67).

لقد قارن فرڤسون ظاهرة الازدواجية اللّغوية في اللّغات التالية: العربية، اليونانية الحديثة، السويسرية الألمانية، ولغة المستعمرات الهجينة في هايتي (بأمريكا اللاتنيية). للكشف عن الصّراع اللّغوي الذي يسود المجتمعات التي تتّسم بالتعدّدية، فما هو الشيء المثير في المسألة؟ الشيء المثير في هذه المسألة هو انطلاقُ فرڤسون في تحديده لمفهوم الازدواجية (الديجلوسيا) من **التّوزيع الوظيفي** للّغتين اللّتين تشكّلان الازدواجية اللّغوية، فأقرّ بأنّ إحدى هذه اللّغات **رفيعة** وهي اللّغة الفصحى، والأخرى **وضيعة** وهي العامية (كما هو الشأن في اللّغة العربية مثلا)، أضف إلى ذلك تأكيد فرڤسون الثبات النسبي للازدواجية وتحديد وظائف كلّ من اللغتين؛ فالرفيعة تستعمل في التعليم وفي كل المحادثات الرسمية، والوضيعة تُستعمل في المحادثات العادية، وهذا ما نصّ عليه التعريف الذي تمّ نقله عن اللساني الاجتماعي "هدسون".

إنّ ما لفت اهتمام الباحثة خولة طالب الإبراهيمي هو قناعة فرڤسون **بالثبات النسبي** للازدواجية، **والتوزيع الوظيفي التكاملي** للغتين (الوضيعة والرفيعة) حيث إنّ لكل تنوّع أدوارا سوسيولسانية محدّدة حسب فرڤسون، ولا يمكن للتنوّع الرفيع أن يحلّ محلّ التنوّع الوضيع أو العكس، يرى هذا العالم أنّ: المتكلم الذي يستعمل التنوّع الوضيع في المقامات الرّسمية سيكون عرضة للسّخرية، كما أنّ المتكلّم الذي يستعمل التنوّع الرفيع في المحادثات العادية أو الأنشطة غير الرسمية مثل التسوّق، سيكون عرضة للسخرية أيضا. فهما في توزيع تكاملي (اللغة الرفيعة واللغة الوضيعة) بناء على ما استخلصه من المجتمعات مزدوجة اللغة التي درسها، وقد وردت تفاصل كثيرة عن هذه الفكرة في كتاب "الجزائريون والمسألة اللغوية"(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، من ص36، إلى ص44).

تقرّ الباحثة أنّ خطاطة فرڤسون التي طالما تمّ تطبيقها على الوضع اللغوي في الجزائر من قبل باحثين فيما سبق، دون إجراء تحريات ميدانية لكشف حقيقة هذا الواقع الفريد من نوعه، هي خطاطة «على جانب كبير من الصلابة والثبات، الأمر الذي يوهمنا بأنّها غير قابلة للتبدل والتغيّر لشدة رسوخها في الزمان، وقد يذهب بنا الظنّ إلى ذلك حقا لاسيما وأنّ التراث العربي يعضد هذا التصور، فالكتاب العرب القدامى قد كرسوا هذه الثنائية بين اللغة والنخبة المثقفة«لغة الخاصة» ولغة العامة أو العوام» (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص39. يعني أنّ موقف فرڤسون الذي يحصر وظيفة اللهجات في المشافهة،

ويقرّ أنّ مجالات استخدامها منفصلة عن مجالات استخدام العربية الكلاسيكية، لا يختلف عن موقف العرب القدامى من اللهجات، أو ما يصطلحون عليه "لغة العوام"، التي يميّزونها عما يسمونه "لغة الخاصة" أو "لغة النخبة"، حيث إنّ لغة العامة، من هذا المنظور، هي لغة عامة الناس الذين ينطقون بلغة غير اللغة الفصحى، بينما لغة الخاصة هي لغة الطبقة المثقفة أو لغة النخبة، وهم أصحاب المنزلة الرفيعة، غير أنّ هؤلاء كذلك يتسرب اللحن إلى لغتهم، ويستخدمون العامية في محادثاتهم حتى في النقاشات العلمية.

قبل أن تقترح الباحثة مقاربة ديناميكية للعلاقات بين اللغات، انتقدت الدراسات السابقة التي تصف الواقع اللغوي العربي بالتركيز على استظهار الازدواجية اللغوية (لغة/ لهجة) في مواجهتها لغة "أجنبية" (أي الفرنسية) معتمدين في ذلك مفهوميْ: الثنائية والازدواجية (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص37)، وترى أنّه نظرا لكون العربية تتراءى في مظهرين: عربية فصحى مستعمَلة في التعليم والأدب وكل المواقف الرسمية، في اعتقاد الدارسين، تنطبق عليها مواصفات اللغة الرفيعة، في حين تنطبق مواصفات اللغة الوضيعة على اللهجات المنطوقة معتمدة في التواصل اليومي في الأوساط الشعبية أو الفئة المتعلّمة المثقفة، وهذه هي خطاطة فرقسون المعيارية.

وتؤكد خولة طالب الإبراهيمي، عند تحليلها للممارسات الفعلية للناطقين باللغة العربية في الجزائر، أنّ الواقع الفعلي «يدعونا لتليين هذا التوزيع الذي يغشاه الانغلاق والصلابة الجمّين، لابد أن نسجل من جهة انبثاق تنوّعات وسطى للعربية وتغلغل اللغات الأجنبية – أي الفرنسية – فيما يخصنا (...) والتساؤل عن طبيعة **العلاقات** الموجودة بين تلك التنوّعات وكذلك مع الفرنسية دون إغفال وجود اللهجات الأمازيغية» (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص39)، وتؤكّد كذلك أنّ دراسات الباحثين السابقين للوضع اللغوي في الجزائر، تتبنى خطاطة فرقسون الكلاسيكية، وقد سبق وأن نعت اللسانيون الاجتماعيون قبلها، أمثال: فيشمان وشيفمان وقومبرز وهايمز... وغيرهم، خطاطة فرقسون بأنّها معيارية، لكونها عاجزة عن الوصف الحقيقي للازدواجية اللغوية في المجتمعات المختلفة، وأكّدوا أنّ شروط الازدواجية، كما حدّدها هذا العالم، لا تنطبق على كلّ مجتمعات مزدوجة اللغة، وقد وصف ألن كي (A. Kaye) سنة 1972، مفهوم فرقسون للازدواجية، بأنّه «"انطباعي" ونظر إلى وضع الازدواجية كوضع لا يميل إلى

الاستقرار والثبات كما فهمه فرقسون»(أكرم صالح محمود خوالدة، 2011، ص135) ، وأعاد باحثون آخرون النظر في قضية ثبات الوضع الازدواجي، ليبيّنوا عدم ثباته.

لقد اقترحاللساني الاجتماعي فيشمان سنة (1967) مصطلح الازدواجية الموسَّعة، التي تجاوزت بعض الثغرات الواردة في تعريف فرقسون، حيث وسَّع المفهوم ليشمل كلّ الأشكال اللغوية التي تتكامل فيها الأدوار السوسيولسانية بغض النظر عن أصولها السلالية، كما أُنتُقد مفهوم الثبات والاستقرار في الازدواجية، حيث أثبت تحليل بعض الوضعيات السوسيولسانية أنّ في كثير من الأحيان تؤدي بعض الظروف إلى إحلال اللغة الوضيعة مكان اللغة الرفيعة، وقد أثبتت خولة طالب الابراهيمي بدورها أنّ الوضع اللغوي في الجزائر لا يستجيب لنموذج فرغسون، على الأقل ما يرتبط بمعياري الثبات والتوزيع الوظيفي التكاملي.

ترى المؤلفة أنّه قد ترسخ في اعتقاد الدارسين للازدواجية اللغوية، الذين تبنوا خطاطة فرقسون، أنّ الازدواجية (الفصحى واللهجات) متعايشة وثابتة طوال عدة قرون، وأنّ الوظائف التي يؤديها هذان التنوّعان موزّعة توزيعا تكامليا؛ الفصحى في المدرسة والإدارة والخطب الدينية وكلّ المواقف الرسمية، واللهجات في التواصل اليومي (الشفوي)، وبالتالي، تدعو إلى التساؤل حول وجوه هذا التعايش وطبيعة العلاقة بين النظامين دون إغفال «التمازجات والتداخلات والتهجين، وأن نتساءل: ما إذا كان ثمة استمرار للازدواجية أم ميلاد نظام ثالثٍ (ثلاثية لغوية (Triglossie) أو عن وجود استمرارية بين هذه التنوّعات»(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص40) ، أمّا مفهوم فرقسون للازدواجية، فلا ينطبق على الوضع اللغوي في الجزائري، خاصة شرط الثبات وتحديد الوظائف. وقد وضّحت ذلك كما يلي:

فبالنسبة للوظائف؛ تشير الباحثة إلى عدم وجود حواجز صلبة وشديدة بين التنوعات، إلاّ في بعض المقامات والخطابات، إذ يكون هناك تداخل بين التنوّعين (الفصيح والعامي) في أغلبية المواقف، كما في الخُطبِ المسجديةِ، مثلا، التي نجد فيها الأئمة لا يتحرّجون في استعمال العامية أحيانا كي يفهمهم عامةُ الناس، وغالبا ما يلجأ المدرسون إلى العامية ليفهمَهم المتعلّمون، والشيءُ نفسُه قد ينطبق على الخطابِ السياسيِّ والخطاباتِ الرسميةِ الأخرى. كما يلجأ الناطقون في مظاهر الحياة اليومية كالزواج والختان

ومراسيم الجنائز ...الخ إلى اللغة العربية الكلاسيكية (آيات قرآنية، أحاديث نبوية، أمثال وحكم...الخ)، فالخطاب اليومي لا يخلو هو أيضا من المزجِ اللّغوي (طالب الإبراهيمي خولة،2007، ص40، 41)

وتركز الباحثة أكثر على البرامج الإعلاميةِ (الموائد المستديرة، والنقاشات والاستجوابات...) التي تخضع إلى قاعدة التّعاقبِ اللغويّ (تعاقب التنوّعات اللغوية). ولا يكاد أيُّ خطابٍ (تعليمي، سياسي، مسرحي، تبادل الرسائل، الأحاديث الحميمية...) كلّ هذه الخطابات لا تخلو من التعاقب لمقاطع بالعربية الدارجة ومقاطع بالعربية الحديثة، وأحيانا باللغة الفرنسية، ممّا يوضّح صعوبة تحديد مجالات استخدام هذه اللغة أو تلك بدقة.

 # أمّا بالنسبة لشرط الثبات؛ فقد استعرضت الباحثة جانبا من التطور السريع الذي تشهده اللغة العربية الفصحى والعامية في السنوات الأخيرة، بسبب احتكاكهما الدائم في مختلف المجالات (التعليم، المسرح، وسائل الإعلام،..) ممّا يدحض نموذج فرقسون المعياري القائم على التنوّع الرفيع والتنوّع الوضيع، الذي أغفل عن عرض استعمال التنوعين بوصفهما يخضعان لمعايير الاختيار المناسِبةِ والمقبولةِ من الجميع، إذ تشهد **الاستعمالات الفعلية عن تنوّع أكثر**. ولا تقوى ثنائية فرجسون على مواجهة الوقائع، رغمّ أنّ واضعي السياسة اللغوية متمسكون بها، كما تمسك بها الباحثون في خطاباتهم، لكن الواقع اللغوي المزدوج ليس ثابتا، لأنّ ذلكلا يجري في فضاء فارغ بل في مجتمع بعينه، وأنّ **حدّي الازدواجية يتغيران بتغيّر العلاقات الاجتماعية**»(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص44)، ممّا دفع الباحثة إلى تبني تصورٍ ديناميكيٍّ للإحاطة بواقع الازدواجية، الذي يخضع باستمرار للتغيّر والديناميكية الاجتماعية.

لقدتناولت الباحثة كذلك، إلى جانب الازدواجية، ظاهرة الثنائية اللغوية(Bilinguisme)، لتوضَح كيف تُقوْلِب الثنائية اللغوية في الجزائر العلاقات بين المجتمع بطبقاته الاجتماعية المختلفة، وهي تتبنى مفهوم أ. مارتيني (A. Martinet) الذي ينص على أنّ الثنائية هي (الاستعمال المتناوب للغتين من قبل الفرد أو الجماعة)، وتسانده في دحضه للآراء التي تقرّ بأن الثنائية تعني (امتلاك لغتين معينتين امتلاكا كاملا متساويا)، حيث ترى أنّ المجتمع الجزائري تتعايش فيه لغتان مختلفتان، العربية والفرنسية، اللتان تُستعملان على نحو من الاحتكاك الدائم، وقد كانت الثنائية في بدايتها بين (اللهجات العربية والأمازيغية)

و(اللغة الفرنسية)، وقد أفضى ذلك إلى نشوء لغة هجينة بين الفرنسية والعربية، وبعد ذلك مسّت تقريبا جميع الشرائح الاجتماعية خلال الاستعمار وبعد الاستقلال، وقد كان لها حضور في الممارسات الفعلية للناطقين، وذلك قبل أن تنحو الأمور نحو التوحيد اللغوي والتعريب الشامل للتعليم، حيث قلّصت السلطات هذه الثنائية، لتقتصر على "الثنائية المدرسية"، إلاّ أنّ المدرسة الجزائرية لا تُخرّج ثنائي اللغات، بل أناسا ذوي كفاءة لغوية دنيا لا يحسنون اللغتين (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص45، 46)، بسبب رداءة نتائج النظام التربوي الجزائري، وهذا هو موقف الكثير من الباحثين الجزائريين من واقع تعليم اللغات في الجزائر، خاصة في السنوات الأخيرة.

وتقتصر الثنائية من حيث وجهها الفردي «(بين العربية الكلاسيكية/ أو الحديثة والفرنسية) على نخبة صغيرة، تتجاذبها محاولات للهيمنة التي يسعى إلى بلوغها كلّ من أحادي اللغة المعرّبين والمفرنسين»(طالب الإبراهيمي خولة،2007، ص46)، إلى أن أصبح اليوم لا وجود للثنائية التامة (الاجتماعية)، كما ترى أنّها ما هي إلاّ ثنائية تفرضها الضرورات والظروف.

فالثنائية اللغوية في الجزائر غير ثابتة هي الأخرى بالشكل الذي تبنّته الأوصاف الكلاسيكية، بل هي تغطي وقائع لغوية مختلفة الأشكال، ولم يكن التوزيع الوظيفي للغتين متساويا، فكانت العربية تُستعمل في المجالات الشرعية والسيادة الوطنيين، والفرنسية في القطاعات التكنولوجية والاقتصادية، ممّا يتناقض مع السياسة اللغوية في البلاد، باعتبار أنّ استرجاع العربية مكانتِها هي أولويةٌ وطنيةٌ، كما أنّ للفرنسية أثارا واضحة في ممارسات الناطقين الجزائريين، ليس في مختلف اللهجات فحسب، بل يمتدّ ذلك إلى الفصحى المشتركة، أضف إلى ذلك ما يبديه الذين يملكون كفاءة لغوية ثنائية من خلال مظاهر الاحتكاك، ويمثل ذلك التعاقب اللغوي الذي يُعتبر من المؤشرات الأساسية على عدم التجانس السوسيولساني، والذي ينبغي أن يكون موضوعا لدراسات معمقة، لكون ذلك من بين الإمكانات اللغوية المتاحة للناطقين الجزائريين.(طالب الإبراهيمي خولة ، 2007، ص47)

وبناء على الطرح السابق، فإنّه يتعذر، كما تقول الباحثة «النظرَ إلى الثنائية بوصفها الاستعمالَ المتناوبَ للغتين فحسب، بل النظر إليها من حيث علاقةِ التنافسِ الموجودِ بينهما وهي علاقةٌ جدليةٌ تجعلُ

(حسب المتخاطبين وحال الخطاب) إحدى اللغتين تنتقلُ من منزلةِ اللغةِ المهيمنةِ إلى منزلة اللغة المهيمِن عليها والعكس بالعكس)» (طالب الإبراهيمي خولة ، 2007، ص38) ، وتأسيسا على هذه الحقيقة، تجاوزت الباحثة، في وصفها للواقع السوسيولساني في الجزائر، الأوصاف الكلاسيكية المعتمدة على مفهومي الازدواجية والثنائية اللغويتين، والتي تقتصر على البعد الوظيفي والبنوي وتحكم على الوقائع بالثبات، لتنحو منحىً جديدا يستمدّ مرجعيته من مقاربات لسانية اجتماعية حديثة، وهي أكثر فعالية وتراعي الواقع.

5- مقاربة ديناميكية للعلاقات بين التنوّعات اللغوية:

تتجلّى المقاربة الديناميكية التي تبنتها خولة طالب الإبراهيمي في إعادة تحديد العلاقات بين اللغات في الجزائر وتحديدها، وذلك كما يلي:

5 – 1 - علاقة اللغة بفكرة الهيمنة:

لقد أعادت الباحثة النظر في مفهوم الازدواجية اللغوية كونه لا ينطبق على السياق الجزائري الذي «تسري فيه لا علاقة سلطان رمزي واحدة بل ثلاث علاقات مختلفة التي تبني العلاقات بين التنوعات اللغوية بجعل كلّ لغة رهانا من أجل كسب السلطة الرمزية من جهة وتشكّل من جهة أخرى عاملا هاما في بنْينة التصوّرات والمواقف التي يقفها الناطقون من كلّ تنوّع لغوي»(طالب الإبراهيمي خولة ، 2007، ص50)، هذه العلاقات متشابكة في الواقع، لكن الباحثة تناولت كلّ علاقة على حدة، وتصل (بعد التحريات الميدانية التي أثبتت عدم وجود استقرار أو تناظر) إلى أنّ:

5 - 1- 1 - العلاقة الأولى أو السلطة الرمزية الأولى (بين اللغة العربية الفصحى واللهجات): ترى أنّ العلاقة بين الفصحى واللهجات، منذ القدم، هي علاقة اللغة المهيمِنة باللغة المهيمَن عليها (الهيمنة الرمزية) ناتجة عن ترتيب العلاقات بين العربية الكلاسيكية واللهجات منذ صدر الإسلام، حيث تُعتبر اللهجات منذ القدم انحرافا للغة العربية الفصحى، وقد أدى هيمنة الفصحى والنّخبة واستهجان اللهجات، في كثير من الأحيان، إلى الزجر والرفض، وإصدار مؤتمر التعريب الذي تمّ بطرابلس سنة 1975 قرارِ منعِ استعمالِ العاميات، إذ سعت أبحاث كثيرة إلى إحلال الاستعمال الجميل والسليم محلّ الاستعمالات الشعبية المنحرفة، وعملت عدة دول عربية على التوحيد من خلال التعريب والتوحيد والتقعيد واستبدال العامية

بالفصحى، ومن ثمّ إلى "تثقيف السّكان كافّة بالنماذج المهيمِنة" بفضل جهود التمدرس وحملات محو الأمية. (طالب الإبراهيمي خولة ، 2007، ص50، 51)

وقد انصب كذلك اهتمام بعض المثقفين العرب وبعض السياسيين على العاميات، واستهدف بعضهم ترسيمها، وقد ظلّت اللهجات تقاوم الفصحى باعتبارها المعيار المهيمِن تستخدمه النخبة المتعلّمة فحسب، وبقاؤها دليل على حيويتها وقدرتها العجيبة على التكيّف مع كلّ الظروف مهما كانت قاسية.

5-1-2- العلاقة الثانية أو السلطة الرمزية الثانية: وهي علاقة تضع العربية الفصحى، من حيث هي معيار مهيمِن أيضا، في تضاد مع اللهجات الأمازيغية، هذه اللهجات ذات حضور قويّ في المناطق التي تستعملها، وينحصر استعمالها في المشافهة أساسا، أمّا كتابتُها فتظلّ هامشية، ولم تحظ بالتقعيد والتوحيد لاسيما في الكتابة، ولا يوجد معيارُ ولا صورة "وسطى" مشتركة لمجموع العالم الأمازيغي، وترى المؤلفة أنّ انتشار الأمازيغية تقلّص وأحلّت العربية ولهجاتها محلّها، وهذا ترجمانٌ نموذجيٌّ للظاهرةِ السوسيولسانية التي قوامها استبدال لغة بلغة أخرى في الاستعمال من قبل جميع السكانِ أو جزء كبير منهم، مع وجودِ (منذ السبعينيات) ردٌّ الفعل الثقافي، يحاول الناطقون بالأمازيغية من خلاله المطالبة بالاعتراف بلغتهم وثقافتهم ويناضلون من أجل ترسيمها وترقيتها(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص53، 55).

5 – 1 - 3- العلاقة الثالثة أو السلطة الرمزية الثالثة: وهي «علاقة الفرض والهيمنة الرمزية ملفتة للانتباه وأكثر عنفا من سابقتيّها ولا تزال أثارُ هذا العنف إلى يومنا هذا، إنّها علاقة لامساواة قائمة منذ الفترة الاستعمارية بين اللغة العربية، لغة الأهالي المهزومة، واللغة الفرنسية لغة المستعمِر»(طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص55)، فقد استعمل المستعمِر كلّ الوسائل لإقصاء اللغة العربية (اللغة المهيمِن عليها)، إذ حلّت الفرنسية محلّ العربية (في المدرسة والمؤسسات المختلفة) وهي ظاهرة أخرى من ظواهر الاستبدال، حيث أصبحت اللغة الفرنسية اللغة الرسمية الوحيدة لمدة طويلة، وفي بداية القرن العشرين، حصلت ردود أفعال متتالية إزاء الهيمنة اللغوية، من قبل حركات وطنية وجمعية العلماء المسلمين من خلال سعيها لإعادة الاعتبار للغة العربية بإصلاح طرق تدريسها، وأصبح تعريب البلاد أحد المبادئ الأساسية للثورة قبل وبعد الاستقلال. ظلت الفرنسية، بعد الاستقلال، لغة أجنبية ذات مكانة متميّزة في الجزائر، وظلّت وظيفتُها

التمييزيةُ مطّردة منتظمة، وبقيت هذه اللغة بفضل الثنائية المدرسية غير المتساوية في دائرة التكنولوجيا والاقتصاد والفروع المدرسية ذات الصيت العالي (طالب الإبراهيمي خولة، 2007، ص55، 58).

والنتيجة التي توصّلت إليها الباحثة بخصوص المسألة السابقة هي **أنّ** الوضع اللغوي في الجزائر يقوم على تداخل ثلاث علاقات – علاقات الهيمنة- كما سمتها الباحثة، حيث توصّلت إلى أنّ التنوّعين المهيمنين يحتلان مكانة قابلة للاستبدال إزاء التنوّعات المهيمِن عليها (اللهجات العربية والأمازيغية)، التي تبقى مهيمِن عليها مهما كان التنوّع الرفيع الذي تواجهها، حالة شبه متصلة التي نجد فيها اللغة الفرنسية تتداخل وتحتك بغيرها من التنوّعات اللغوية، ومستخدمة على كل مستوى من المستويات السلسة الناطقة بالعربية، بحضور قوي أو ضعيف أو بتداخل قوي أو ضعيف أثناء التفاعل، دون إغفال استمرارية التنوّع الأمازيغي، في هذه الحالة، بنفس الكيفية مثل اللهجات العربية (يعني وضعَها في هذه الحالة مثل وضع اللهجات العربية)،وهكذا يسود المجتمعَ الجزائريَّ تعدّدٌ لغويٌ واضح.

5 – 2 – الاستمرارية اللغوية:

ترى الباحثة أنّ على الصعيد الممارسات الفعلية القابلة للمشاهدة (وليس على مستوى التصور الذهني ومواقف المتكلمين) لا يكفي اعتماد **مفهوم الازدواجية** في وصف **الواقع اللغوي المتعدّد** في المجتمع الجزائري نظرا لعدم ثبات وتناظر الازدواجية فيه، بل ترى أنّ **فرضية الاستمرارية** هي أكثر مطابقة للواقع، لأنّ الواقع يؤكّد أنّ الثنائية الجماعية هي دائما استمرارية أو شبه استمرارية في الاستعمالات الفعلية.(التفاصيل: طالب الإبراهيمي خولة، 2007، من ص60 إلى ص68):

فالأشكال المختلفة للازدواجية تنتظم وفق استمرارية لغوية، ولا يمكن الفصل بينها في الواقع إلاّ نظريا، فمن النادر أن يستعمل المتكلم في خطابه تنوّعا لغويا واحدا، حيث ينتقل المتكلمون من حدود لغوية إلى أخرى في الجملة نفسِها. فهناك لغة مشتركة حقيقية مستخدمة في المشافهة من قبل المعربين المثقفين فيما بينهم، تستمد خصائصَها البنوية من النظام اللهجي، ومفرداتِها من المستويين الكلاسيكي والحديث (منهم من يسميها بالعربية الوسطى، ومن يسميها عامية المثقفين، ومن يسميها التنوّع شبه الأدبي أو المهذّب) تلجأ إليها الفئة المثقفة في الأوساط المعرّبة في لقاءاتها واستعمالاتها غير الرسمية، للتخلّص من

مميّزاتهم الجهوية الخاصة بلهجاتهم الخاصة بهم خلال عملية التوحيد والاقتراض من العربية الفصحى. وهي مستخدمة على المستوى الشفوي، ولا ينبغي الخلط بينها وبين الآداءات الشفوية للتنوّع العربي الكلاسيكي، التي تحافظ على أهم خصائص العربية الكلاسيكية والفصحى المشتركة (كحركات الإعراب، بنية الجملة، استخدام المثنى...)، وميّزت كذلك المكتوب المنطوق (استظهار النص المكتوب قراءة) عن المنطوق الفصيح، الذي نعثر عليه في المقامات الرسمية: الاجتماعات/ الدروس/ المحاضرات/ مناقشات الرسائل الجامعية/ وسائل الإعلام السمعية والمرئية وهو ينتمي إلى المستوى الفصيح الفرعي للعربية. يعني هناك عربية المتمدرسين أو المثقفين، والمنطوق الفصيح المشترك (الذي توفّره أكثر الإذاعة والتلفيزيون) وهما تنوّعان متعايشان حقا في الخطاب الواحد لاسيما في أداءات المثقفين (الأستاذ في قاعة الدرس/ برامج التليفزيونية...)

والنتيجة التي توصّلت إليها الباحثة بخصوص مسألة "الاستمرارية اللغوية" هي أنّ تحليل الواقع اللغوي أثبت أنّ الازدواجية السائدة في المجتمع الجزائري ليست ذات قطبين (الازدواجية الكلاسيكية) ولا ذات ثلاثة أقطاب (ثلاثية بعض الباحثين: عربية كلاسيكية، عربية وسطى، لهجات عربية) بل هناك نموذج أكثر تعقيدا وأكثر اتّساعا من حيث التعبير وأكثر مرونة وأكثر تكيفا مع ظروف التّخاطب. وأثبتت صحة الفرضية القائلة بالاستمرارية من حيث فضاء متصل غير منقطع لأوضاع مختلفة، وهذه الاستمرارية تنتظم وفق سلّم من الممارسات اللغوية التي تنطلق من الاستخدام الفصيح جدا (أكثر امتثالا لمعايير الفصحى)، كما يلي(طالب الإبراهيمي خولة، 2007،ص65، 67):

* – العربية الكلاسيكية / 2 – العربية الفصحى (أو الحديثة حسب بعض المؤلفين والباحثين) وهي عبارة مستعملة لتوحيد الاستعمال الرسمي المعاصر للغة في الأوساط التي تجيد استخدامها لاسيما في الكتابة.

* – العربية الفصحى الفرعية التي يمثّلها المنطوق الفصيح كما حددته الباحثة.

* – العربية المنطوقة التي يستعملها المتعلمون والمثقفون (العربية المنطوقة المهذبة)

*– الاستخدام الأقل خضوعا للمعيار أي اللهجات (الخاصة بحي أو مدينة معينة أو اللهجات الجهوية الخاصة بمنطقة ذات رقعة واسعة).

وانطلاقا ممّا سبق، فإنّ الواقع اللغوي للعربية المعاصرة حسب المؤلفة، عبارة عن استمرارية غير قابلة للتجزئة إلى عدد لا متناه من التنوّعات، لكن مشاكل وصفها معقّدة جدا.

الخاتمة:

يعتبر كتاب خولة طالب الإبراهيمي "الجزائريون والمسألة اللغوية، مرجعا علميا أساسيا في الدراسات السوسيولسانية، أعادت الباحثة من خلاله، قراءة المشهد اللغوي في الجزائر قراءة لسانية اجتماعية مبنية على أسس علمية، وبعيدا عن الإيديولوجيا والسياسة، وصرّحت بما هو كائن بالفعل، حيث أجرت تحريات ميدانية وركّزت على الممارسات اللغوية اليومية للناطقين وتصوراتهم ومواقفهم، فأسفر بحثها (وبأدلة علمية) عن نتيجة مهمة، مفادها أنّ الوضع اللغوي في الجزائر متعدّد ومتشعّب، ودافعت بشدّة وبأدلة ملموسة عن هذه الحقيقة.

لقد عالجت الباحثة المسائل التي طرحتها في مقدمة بحثها بطريقة إبداعية، تجاوزت من خلال ذلك الخطاطات المعيارية المعتمدة من قبل المحلّلين للواقع اللغوي في الجزائر، وطرحتْ في مقابل ذلك تصورا جديدا لوصف هذا الواقع، إذ لم تكتف في تحليلها لظاهرة الازدواجية الموسعة (الكبرى) بالإشارة إلى التنوّعات السائدة باعتبارها إمكانات مختلفة متاحة للأفراد ليعبروا عن شيء واحد بطرق مختلفة وبكلّ حرية وديمقراطية،فيختار المتحدّث ذو ازدواجية أو ثنائية أو تعدّدية التنوّع أو اللغة التي تناسب السياق الذي يتحدّث فيه، بل وصفت كذلك حالات كثيرة تتسم بالتعاقب وأخرى بمزج بين أكثر من تنوُّعين، ونظرت إلى هذا الواقع المتعدد والمعقد كإطار تاريخي وإيديولوجي ونفساني ولساني.

لقد توصلت خولة طالب الإبراهيمي، من خلال تحرياتها الميدانية، إلى أنّ المجتمع الجزائري ليس مجتمعا مزدوج اللغة بمفهوم فرقسون للازدواجية وخطاطته المعيارية، بل هو واقع متعدد، ويمكن تطبيق عليه مصطلح الازدواجية بالمفهوم الموسع الذي اقترحه (فيشمان)، وهو مفهوم يغطي كلّ التنوّعات السائدة في المجتمع والتي يمارسها الناطقون بالتناوب أو الانتقال والاقتراض...،ولم يسبق لأيّ باحث أن كشف عن الطبيعة

الحقيقية للواقع السوسيولساني في الجزائري بأنّه واقع متشعب ومتعدّد ومعقد، إلاّ بعد نشر خولة طالب الإبراهيمي بحثها الموسوم ((Les algériens et leur(s) langue(s)سنة 1994، الذي يحمل نظرة جديدة بشأن الواقع اللغوي في الجزائر، ويدحض التصور التقليدي الذي لم يتأسس على معطيات علمية وأدلة من الواقع الملموس.

وهناك باحث ونمغاربة ممن تأثروا بالتصورات والرؤى الجديدة لخولة طالب الإبراهيمي إزاء الواقع اللغوي في الجزائر،حيث نستشف من أبحاثهم مدى تأثرهم بالخطاطة الوصفية الجديدة لخولة، وتبنيهم فكرة الازدواجية الموسعة التي تشمل العربية الفصحى واللهجات بكلّ تنوّعاتهما والأمازيغية والفرنسية ...الخ، ليعيدوا وصف واقعهم اللغوي (الذي لا يختلف كثيرا عن الواقع اللغوي في الجزائر) على غرار بحث خولة طالب الإبراهيمي، وإعادة تحديد العلاقات بين اللغات المستعملة مع تجاوز الحدود التي رسمها فرقسون للازدواجية (التي هي حكر على تنوّعين لغويين فقط؛ الأول **رفيع** ويتمثل في اللغة العربية الفصحى التي طالما اعتقد الباحثون أنّها واحدة ومشتركة، والثاني وضيع ويتمثل في العاميات العربية) لجعل المفهوم السابق يستوعب بقية التنوعات التي يستخدمها الناطقون، والتي تشمل تنوّعات عربية كثيرة، وأخرى أمازيغية، واللغة الفرنسية ... وغيرها من اللغات المستعملة في الواقع.

قائمة المراجع :

1 – الكتب:

– الأوراغي، مُحَمَّد، (2002)، التعدد اللغوي: انعكاساته على النسيج الاجتماعي، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، (سلسلة بحوث ودراسات) مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب.

–بن مُحَمَّد القعود، عبد الرحمن ، (1997)، الازدواج اللغوي في اللغة العربية، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية.

– بورديو، بيير، (2007) الرّمز والسلطة، تر. عبد السلام بنعبد العالي، ط3، دار توبقال للنشر، المغرب.

–جان كالفي، لويس، (2004)، علم الاجتماع اللغوي، تر: مُحَمَّد يحياتن، دار القصبة، الجزائر.

– خوالدة، أكرم صالح محمود،(2011)، الإيدز اللغوي، ط1، دار الحامد، عمان.

– طالب الإبراهيمي، خولة ، (2007)، الجزائريون والمسألة اللغوية – عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري– تر. مُحَمَّد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر.

- العشيري، محمّد نافع، (2016)، مفاهيم وقضايا سوسيولسانية، ط1،، دار كنوز المعرفة، عمّان.
- فاسولد، رالف، (2000)، علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، تر: إبراهيم صالح محمّد الفلاي، النشر العلمي والمطابع، الجزء1، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية.
- هدسون، (1990)، علم اللغة الاجتماعي، تر: محمود عياد، ط2، عالم الكتب، القاهرة.

2 – المجلات:

- لقاء مع الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي، (2020)، مجلة الإنسانيات، ع85، يصدرها مركز البحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران ، الجزائر. ص15 / 16.

3– المراجع باللغة الأجنبية:

- Khaoula (T. I), 1997, Les Algériens et leur(s) langue(s) : éléments pour une approche sociolinguistique de la société algérienne, 2ème édition, El Hakim, Alger.

4 – المراجع الإلكترونية:

- https://www.djazairess.com/elmassa
https://www.aljazeera.net/news/reportsandintervi

* **– الأستاذة الدكتورة خولة طالب الإبراهيمي** أستاذة بقسم اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، وباحثة في اللسانيات، من أبرز أعمالها كتاب (مبادئ في اللسانيات) الذي يُعدّ مرجعا أساسيا لطلبة أقسام اللغة والأدب وللباحثين، لاسيما المبتدئين منهم، فقد أسهمت الباحثة بهذا الكتاب في تقريب المفاهيم الأساسية للسانية الحديثة إلى الطالب العربي. اشتهرت كذلك بكتابها الموسوم:
Les algériens et leur(s) langue(s) : éléments pour une approche sociolinguistique de la société algérienne
ترجمه أ. محمّد يحياتن، أستاذ بجامعة تيزي وزو ، تحت عنوان: **"الجزائريون والمسألة اللغوية، عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري"**.
وقد أنجزت عملها، كما يشير المترجم في مقدمة الكتاب، في إطار بحث جامعي لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب والعلوم الإنسانية بجامعة ستندال(Stendhal) في مدينة قرونبل(Grenoble) الفرنسية، ثمّ نوقشت الرسالة في أكتوبر 1991، وقد صدرت الطبعة الأصلية باللغة الفرنسية عن دار الحكمة سنة 1994، ثمّ الطبعة الثانية باللغة الفرنسية سنة 1997، وبعد ذلك قام الأستاذ "محمّد يحياتن" بترجمته إلى اللغة، حيث صدرت الطبعة المترجمة سنة 2007.